موقف المالكية من الإلهام عند الصوفية

الباحث : راشد بن عبد الرحمن سرير حاج

قسم العقيدة والدعوة- كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الملك عبد العزيز - جدة – المملكة العربية السعودية.

rachedabouabdelkayoum@gmail.com

الملخص:

أرسل الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بالدين الكامل، والرسالة الخاتمة، وجعل الهدى في اتباعه، والضلالة في مخالفته، وإن هذا الدين له مصادر في التلقي والاستدلال، وهي الكتاب والسنة والإجماع، وهي مصادره الأصلية، والعقل والفطرة السليمة، وهي مصادره الثانوية، هذه المصادر يعتمد عليها أهل السنة والجماعة في الاستدلال على مسائل المعتقد، وقد خالف هذه الجادة السوية طوائف من الفرق المنتسبة إلى الإسلام، ومنهم الصوفية، فقد أحدثوا مصادر لتلقي العقيدة والاستدلال عليها، ومنها الإلهام، وكان ممن لبيان الخلل في استدلال الصوفية بالإلهام علماء المالكية الذين كانوا على منهج إمامهم في العقيدة كما كانوا على منهجه في الفقه، ومن ثم جاء هذا البحث بعنوان: موقف المالكية من الإلهام عند الصوفية، بهدف إبراز بعض جهود أولئك العلماء في بيان المنهج الصحيح في التلقي والخلل الموجود عند المتصوفة في أخذهم بالإلهام، وقد انتظم البحث في مقدمة ومبحثين وخاتمة.

وقد توصلت بحمد الله وفضله وتوفيقه إلى أن علماء المالكية كانت لهم جهود مشكورة في الرد على أهل التصوف في استدلالهم بالإلهام والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الكلمات المفتاحية: المالكية، الصوفية، الألهام، الهداية، الإسلام.

Abstract:

Allah Almighty sent His Prophet Muhammad (peace be upon him) with the complete religion and the final message, and made guidance in following him and misguidance in opposing him. This religion has sources for reception and reasoning: the **primary sources** are the Qur'an, the Sunnah, and consensus (ijmā'), and the **secondary sources** are sound reason and innate disposition (fiṭrah). These are the foundations upon which Ahl al-Sunnah wa'l-Jamā'ah rely in matters of belief. However, various sects affiliated with Islam have deviated from this sound path. Among them are the **Sufis**, who introduced additional

sources for receiving and interpreting creed, such as **inspiration (ilhām)**. Among those who clarified the flaws in the Sufi reliance on inspiration were scholars from the **Mālikī school**, who adhered to their Imam's methodology in both creed and jurisprudence.

Accordingly, this study is titled: *The Mālikī Position on Sufi Inspiration*, aiming to highlight some of the efforts of Mālikī scholars in clarifying the correct methodology and exposing the error in the Sufi approach to inspiration. The research consists of an introduction, two sections, and a conclusion. By Allah's grace and guidance, it was concluded that Mālikī scholars made commendable efforts in refuting the Sufis' use of inspiration as a source of belief. And Allah knows best. May peace and blessings be upon our Prophet Muhammad, his family, and his companions.

Keywords: Mālikīs, Sufis, inspiration (ilhām), guidance, Islam.

المقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً مزيداً إلى يوم الدين، أما بعد،

فإن الله تعالى قد أرسل رسوله الخاتم محمداً صلى الله عليه وسلم فبلغ رسالة ربه، وأدى الأمانة، وأكمل الله به الدين، وأتم به النعمة، وترك أمته على بيضاء نقية ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، وكان مما بينه هذا النبي الكريم ρ العقيدة التي يجب اعتقادها، وهذه العقيدة لها مصادر منها ما هو أصلي كالكتاب والسنة والإجماع، ومنها ما هو ثانوي كالعقل والفطرة، ثم إنه قد ضل طوائف من المسلمين عن السبيل الأقوم في هذا الباب، ومنهم الصوفية، فقد أحدثوا مصادر لتلقي المعتقد، ومن أبرزها عندهم الإلهام، وقد انبرى علماء السنة والجماعة للرد عليهم وبيان انحرافهم في التلقي، وممن كانت لهم يد طولى في ذلك علماء المالكية؛ فقد أبلوا بلاء حسناً في الدفاع عن عقيدة السلف وبيان الخلل الواقع عند الصوفية في استدلالهم بالإلهام، وقد أحببت المشاركة بهذا البحث لبيان شيء من تلك الجهود المالكية، وجعلته بعنوان: موقف المالكية من الإلهام عند الصوفية، وقد جاء في مقدمة ومبحثين وخاتمة.

المبحث الأول: تعريف الإلهام.

من وسائل الكشف عن الصوفية وتلقي العلوم الإلهام.

أولاً: الإلهام لغة.

الإلهام: مصدر ألهم يلهم إلهاماً، وهو "أَن يُلْقِيَ اللَّهُ فِي النَّفْسِ أَمراً يَبْعَثُه عَلَى الْفِعْلِ أَو التَّرْكِ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الوَحْي، يَخُصُّ اللَّهُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ"[1].

ثانياً: اصطلاحاً.

قال الجرجاني ρ:"الإلهام: ما يلقى في الرُّوع بطريق الفيض. وقيل: الإلهام: ما وقع في القلب من علم، وهو يدعو إلى العمل من غير استدلال بآية، ولا نظر في حجة، وهو ليس بحجة عند العلماء، إلا عند الصوفيين"[2].

قال في مراقي السعود:

ويُنْبَذُ الإلهَامُ بِالْعَرَاءِ أَعْنِي بِهِ إِلْهَامَ الأَوْلِيَاءِ

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي ρ في شرحه: "يعني أن الإلهام ليس بحجة؛ لعدم الثقة بإلهامِ من ليس معصوماً، فلا تُؤْمَن دسيسة الشيطان فيه، والنبذ: الطرح والإلغاء، والعراء: الأرض التي لا نبات فيها ولا شجر، والإلهام: إيقاع شيء في القلب يثْلُج له الصدر من غير استدلال، يخص اللَّه تعالى به من شاء، والحقُّ فيه ما ذكره المؤلف من أنه يُنبذ بالعراء أي: يُلْغى ويُطْرح بالفضاء؛ إذْ لا يثبت الشرع إلا بدليل، ومِثْل الإلهام: ما لو رأَى النبيَّ ρ يأمره أو ينهاه في النوم لأن النائم لا يضبط.

وَقَدْ رَآهُ بَعْضُ مَنْ تَصَوَّفا وعِصْمَةُ النَّبِيِّ تُوجِبُ اقْتِفَا

يعني أن بعض المتصوِّفة رأى الاحتجاج بالإلهام في حق الملهَمِ نفسه دون غيره، وبعض الجبرية رآه حجة في حق الملهَم وغيره بمنزلة الوحي المسموع، واستدلوا بحجج لا تجديهم..."[3].

وقال أبو المظفر السمعاني ρ بعد أن ذكر أدلة القائلين بحجية الإلهام، وأدلة أهل السنة على رد الاحتجاج به مطلقاً ومناقشتهم لأدلة المخالفين:" واعلم أن إنكار أصل الإلهام لا يجوز، ويجوز أن يفعل الله تعالى بعبد بلطفه كرامة له، ونقول في التمييز بين الحق والباطل من ذلك: أن كل ما استقام على شرع النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن في الكتاب والسنة ما يرده فهو مقبول، وكل ما لا يستقيم على شرع النبي ρ فهو مردود، ويكون ذلك من تسويلات النفس ووساوس الشيطان، ويجب رده، على أنا لا ننكر

[1] لسان العرب لابن منظور (12/ 555).
[2] التعريفات للجرجاني ص (34).
[3] نثر الورود شرح مراقي السعود لمحمد الأمين الشنقيطي (2/ 582، 583).

زيادة نور الله تعالى كرامة للعبد، وزيادة نظر له، فأما على القول الذي يقولونه، وهو أن يرجع إلى قوله في جميع الأمور فلا نعرفه، والله تعالى أعلم وأحكم"[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ρ في تحرير المسألة:" ... ففي الجملة، متى حصل ما يظن معه أن أحد الأمرين أحب إلى الله ورسوله كان هذا ترجيحاً بدليل شرعي، والذين أنكروا كون الإلهام طريقاً على الإطلاق أخطأوا، كما أخطأ الذين جعلوه طريقاً شرعياً على الإطلاق، ولكن إذا اجتهد السالك في الأدلة الشرعية الظاهرة فلم ير فيها ترجيحاً، وألهم حينئذ رجحان أحد الفعلين مع حسن قصده وعمارته بالتقوى، فإلهام مثل هذا دليل في حقه، قد يكون أقوى من كثير من الأقيسة الضعيفة والأحاديث الضعيفة والظواهر الضعيفة والاستصحابات الضعيفة التي يحتج بها كثير من الخائضين في المذهب والخلاف وأصول الفقه..."[2].

[1] قواطع الأدلة للسمعاني (2/ 352).
[2] مجموع فتاوى ابن تيمية (10/ 473).

المبحث الثاني: ردود المالكية.

- **النموذج الأول: مبارك الميلي ρ (ت: 1364ه)[1]:**

قال ρ:" أما الإلهام، فالمراد به الإلهام الخاص دون العام الذي قال الله فيه: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) [الشمس 7، ٨].

والإلهام الخاص هو الذي عبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بالتحديث؛ إذ قال: (لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ نَاسٌ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ، فَإِنَّهُ عُمَرُ)[2] أخرجه الشيخان.

وعبر عنه أيضاً بالفراسة، فقال ρ : (اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ)، ثم قرأ قوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ) [الحجر: ٧٥]، قال: (المُتَفَرِّسِين)[3]. أخرجه عن أبي سعيد الخدري البخاري في تاريخه، والترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن السني، وأبو نعيم في الطب، وابن مردويه، والخطيب، قاله في الدر المنثور (4/ 103).

وهذه الفراسة الناشئة عن الإيمان غير الفراسة الطبيعية والرياضية، كما في شرح العقيدة الطحاوية (ص:425)[4].

[1] مبارك بن محمد إبراهيمي الميلي الجزائري، ولد 1316 تقريباً في دوار أولاد امبارك من قرى الميلية من أحواز قسنطينة، أخذ عن جلة من العلماء منهم: عبد الحميد بن باديس ومحمد النخلي القيرواني، والشيخ محمد الصادق النيفر والشيخ محمد الطاهر بن عاشور، والشيخ بلحسن النجار وغيرهم، كان له دعوة إصلاحية ودروس ومواعظ، ولما تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين انتخب الشيخ مبارك عضواً في مجلس إدارتها وأميناً لماليتها، من تلاميذه: أبو بكر الأغواطي، الأستاذ أحمد قصيبة، أحمد شطة، عمر النصيري، ترك مؤلفين جليلين: الشرك ومظاهره، وتاريخ الجزائر في القديم والحديث، ومجموعة من المقالات والبحوث النافعة، توفي سنة 1364. ينظر: معجم أعلام الجزائر لعادل نويهض ص (325)؛ آثار محمد البشير الإبراهيمي (3/ 183)؛ مقدمة تحقيق رسالة الشرك ومظاهره لأبي عبد الرحمن محمود الجزائري.

[2] عن أبي هريرة η، رواه البخاري في صحيحه: كتاب أحاديث الأنبياء- باب حدثنا أبو اليمان (4/ 174 ح 3469)؛ وعن عائشة ι ، كتاب فضائل الصحابة- باب من فضائل عمر رضي الله تعالى عنه (7/ 115 ح 2398).

[3] عن أبي سعيد الخدري η، رواه الترمذي في سننه: كتاب التفسير- باب ومن سورة الحجر (5/ 200 ح 3127)؛ وما نقله من تفسير المتوسمين بالمتفرسين نقله الترمذي عن بعض أهل العلم؛ والحديث ضعفه الألباني في الضعيفة (4/ 299 ح 1821).

[4] قال ابن أبي العز الحنفي ρ :" ومما ينبغي التنبيه عليه هاهنا: أن الفراسة ثلاثة أنواع:
إيمانية: وسببها نور يقذفه الله في قلب عبده، وحقيقتها أنها خاطر يهجم على القلب، يثب عليه كوثوب الأسد على الفريسة، ومنها اشتقاقها، وهذه الفراسة على حسب قوة الإيمان، فمن كان أقوى إيمانا فهو أحد فراسة، قال أبو سليمان الداراني ρ : الفراسة مكاشفة النفس ومعاينة الغيب، وهي من مقامات الإيمان. انتهى.

• قول عمر: يا سارية...

ومثاله قول عمر η : يا سارية! الجبل، قاله وهو يخطب على منبر المدينة المنورة، وسارية أمير جيشه عند جبل نهاوند من أرض العجم، وقد كاد يغلبه العدو، فلما قال عمر كلمته، سمعها سارية، وانحاز إلى الجبل[1].

أخرج القصة غير واحد، وحسن سندها الحافظ في الإصابة.

وفراسة رياضية: وهي التي تحصل بالجوع والسهر والتخلي؛ فإن النفس إذا تجردت عن العوائق صار لها من الفراسة والكشف بحسب تجردها، وهذه فراسة مشتركة بين المؤمن والكافر، ولا تدل على إيمان، ولا على ولاية، ولا تكشف عن حق نافع، ولا عن طريق مستقيم؛ بل كشفها من جنس فراسة الولاة وأصحاب عبارة الرؤى والأطباء ونحوهم.
وفراسة خلقية: وهي التي صنف فيها الأطباء وغيرهم، واستدلوا بالخلق على الخلق؛ لما بينهما من الارتباط الذي اقتضته حكمة الله، كالاستدلال بصغر الرأس الخارج عن العادة على صغر العقل، وبكبره على كبره، وسعة الصدر على سعة الخلق، وبضيقه على ضيقه، وبجمود العينين وكلال نظرهما على بلادة صاحبهما وضعف حرارة قلبه، ونحو ذلك". شرح العقيد الطحاوية (2/ 753، 754).

[1] عن ابن عمر κ ، أخرجه البيهقي في دلائل النبوة: جماع أبواب إخبار النبي ρ بالكوائن بعده، وتصديق الله جل ثناؤه رسوله ρ في جميع ما وعده- باب ما جاء في إخبار النبي ρ بمحدثين كانوا في الأمم وأنه إن يكن في أمته منهم أحد فعمر بن الخطاب فكان كما أخبر (6/ 370)؛ وهو في الصحيحة للألباني (3/ 101 ح 1110)، قال الشيخ الألباني عقب تخريجه له:" ومما لا شك فيه أن النداء المذكور إنما كان إلهاما من الله تعالى لعمر وليس ذلك بغريب عنه، فإنه محدث " كما ثبت عن النبي ρ ، ولكن ليس فيه أن عمر كشف له حال الجيش، وأنه رآهم رأي العين، فاستدلال بعض المتصوفة بذلك على ما يزعمونه من الكشف للأولياء وعلى إمكان اطلاعهم على ما في القلوب من أبطل الباطل، كيف لا وذلك من صفات رب العالمين المنفرد بعلم الغيب والاطلاع على ما في الصدور. وليت شعري كيف يزعم هؤلاء ذلك الزعم الباطل والله β يقول في كتابه: * (عالم الغيب، فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول) *. فهل يعتقدون أن أولئك الأولياء رسل من رسل الله حتى يصح أن يقال: إنهم يطلعون على الغيب باطلاع الله إياهم!! سبحانك هذا بهتان عظيم.
على أنه لو صح تسمية ما وقع لعمر η كشفاً، فهو من الأمور الخارقة للعادة التي قد تقع من الكافر أيضاً، فليس مجرد صدور مثله بالذي يدل على إيمان الذي صدر منه فضلاً على أنه يدل على ولايته، ولذلك يقول العلماء: إن الخارق للعادة إن صدر من مسلم فهو كرامة، وإلا فهو استدراج، ويضربون على هذا مثل الخوارق التي تقع على يد الدجال الأكبر في آخر الزمان كقوله للسماء: أمطري، فتمطر وللأرض: أنبتي نباتك فتنبت، وغير ذلك مما جاءت به الأحاديث الصحيحة".
وذكر بعض الأمثلة المعاصرة مما يشبه قصة عمر η ثم قال:" اكتفينا بالذي أوردناه؛ لأنها أقرب الأمثال مشابهة لقصة عمر η ، التي طالما سمعت من ينكرها من المسلمين لظنه أنها مما لا يعقل! أو أنها تتضمن نسبة العلم بالغيب إلى عمر، بينما نجد غير هؤلاء ممن أشرنا إليهم من المتصوفة يستغلونها لإثبات إمكان اطلاع الأولياء على الغيب، والكل مخطئ؛ فالقصة صحيحة ثابتة، وهي كرامة أكرم الله بها عمر، حيث أنقذ به جيش المسلمين من الأسر أو الفتك به، ولكن ليس فيها ما زعمه المتصوفة من الاطلاع على الغيب، وإنما هو من باب الإلهام (في عرف الشرع) أو (التخاطر) في عرف العصر الحاضر الذي ليس معصوماً، فقد يصيب كما في هذه الحادثة وقد يخطئ كما هو الغالب على البشر، ولذلك كان لابد لكل ولي من التقيد بالشرع في كل ما يصدر منه من قول أو فعل خشية الوقوع في المخالفة، فيخرج بذلك عن الولاية التي وصفها الله تعالى بوصف جامع شامل فقال: * (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم
ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون) *. ولقد أحسن من قال:

إذا رأيت شخصا قد يطير وفوق ماء البحر قد يسير
ولم يقف على حدود الشرع فإنه مستدرج وبدعي".

فأنت ترى أن عمر ألهم حالة أمير جيشه مع عدوه، وألهم تلك الكلمة التي أبلغها الله إلى أذن سارية، فنبهته إلى ما كان غافلاً عنه من التحصن بالجبل"[1].

- **النموذج الثاني: عبد الرحمن النتيفي ρ (1385ه)[2]:**

يقول ρ :" إن الإلهام والمنامات من الجيلاني والجنيد والتجاني وغيرهم من الناس الذين ليسوا بمعصومين لهو ولعب وضلال، يضل به الجهال والمبتدعون، ..." إلى أن قال:" ... لا خلاف بين العلماء في أنه عند عدم وجود النص من القرآن والسنة يجتهد العلماء ويستعملون القواعد المقررة في علم الأصول لاستنباط الأحكام وتطبيقها على النوازل النازلة بالناس، وما قال أحد من العلماء بالرجوع إلى الإلهام والمنامات لاستنباط الأحكام عند نزول النوازل كما يزعم عبد العزيز بن عبد الله والجيلاني والمتصوفة الدجالون الذين يشوهون سمعة الشريعة الإسلامية، ويلطخون بهاءها بالخرافات والإلهام والمنامات... ويكفينا هنا أن عمر بن الخطاب الذي شهد له رسول الله ρ بالإلهام شهادة تصلح لأن تكون دليلاً على عصمته فيه، كما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ρ: («لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ)[3] لم يثبت عنه أنه عمل بالإلهام في نازلة دينية نزلت به؛ بل كان من المعروف عنه أنه يجمع الصحابة ويستشيرهم في النوازل التي تنزل به، حتى إنه كان يستشير صغار الصحابة الذين لا يساوونه في الفضل والصحبة والعلم، كما فعل في قضية الدخول إلى الشام عند حدوث الطاعون"[4].

---

[1] رسالة الشرك ومظاهره لمبارك الميلي ص (205، 206).

[2] [2] الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن إبراهيم النتيفي الجعفري، ينتهي نسبه إلى محمد الجواد بن علي الزينبي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب η ، وعلي الزينبي أمه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله ρ ، ولد سنة 1303ه بقرية المقاديد بقبيلة هنتيفة، حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، وأخذ العلم عن أبي شعيب البهلولي ومحمد التهامي كنون ومحمد بن جعفر الكتاني وجماعة، وأخذ عنه ابناه حسن ومحمد وشقيقاه الجيلاني ومحمد وعباس التادلي ومحمد العبدي الكانوني وغيرهم، عرف بدعوته إلى التوحيد والسنة ومحاربة الشرك والبدعة والصوفية الطرقية، من مؤلفاته: الحكم المشهور في طهارة العطور، حل إبرام النقض في الرد على من طعن في سنة القبض، تنبيه الرجال في نفي القطب والغوث والأبدال، المستغنم في بقاء الجنة وفناء جهنم وغيرها، توفي ليلة الثلاثاء 23 ذي القعدة سنة 1385ه . ينظر: ترجمة ابنه حسن مختصر ترجمة شيخ الإسلام ρ أبي زيد الحاج عبد الرحمن النتيفي الجعفري؛ مقال للشيخ محمد زحل بعنوان: من أعلام الدعوة السلفية في بلادنا العلامة الشيخ أبو زيد عبد الرحمن النتيفي الجعفري ρ، منشور في مجلة الفرقان المغربية العدد 15/ السنة الرابعة/ شوال 1408ه، والعدد 16/ السنة الخامسة/ محرم- صفر 1409ه؛ ومقدمة تحقيق كتاب نظر الأكياس في الرد على جهمية البيضاء وفاس للدكتور عبد الله الدميجي.

[3] عن أبي هريرة η، رواه لبخاري في صحيحه: كتاب فضائل الصحابة- باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي η (5/ 12 ح 3689).

[4] فضيحة عبد العزيز بن عبد الله وصفع والده على قفاه ببيان جهلهما وكذبهما فيما ادعياه ص (9، 10)؛ وينظر: جهود علماء المالكية في الرد على الصوفية لمريم باقازي ص (7- 10)

يبطل الشيخ عبد الرحمن النتيفي ρ اعتماد الصوفية على الإلهام والمنامات، وذكر أن الذي لا خلاف فيه بين العلماء هو الاجتهاد واستعمال القواعد الأصولية للحكم في النوازل، عند عدم النص من القرآن والسنة، وأجمعوا على عدم الرجوع إلى الإلهام والمنامات خلافاً للصوفية، ومن أدلة بطلان الاعتماد على الإلهام، أن عمر η كان ملهماً محدَّثاً بشهادة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن η يعتمد على إلهامه؛ بل كان يجمع الصحابة عند النوازل ويستشيرهم، فتبين بهذا مخالفة الصوفية للإجماع ولعمل الصحابة φ في الاستدلال بالإلهام والمنامات.

- **النموذج الثالث: محمد الأمين الشنقيطي ρ (1393ه):**

قال ρ مبيناً بطلان الاحتجاج بالإلهام:" وما يستدل به بعض الجهلة ممن يدعي التصوف على اعتبار الإلهام من ظواهر بعض النصوص كحديث: (اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ)، لا دليل فيه ألبتة على اعتبار الإلهام؛ لأنه لم يقل أحد ممن يعتد به أن المفتي الذي تتلقى الأحكام الشرعية من قبله القلب؛ بل معنى الحديث التحذير من الشبه؛ لأن الحرام بين والحلال بين، وبينهما أمور مشتبهة لا يعلمها كل الناس، فقد يفتيك المفتي بِحِلِّيَّةِ شيء، وأنت تعلم من طريق آخر أنه يحتمل أن يكون حراماً، وذلك باستناد إلى الشرع؛ فإن قلب المؤمن لا يطمئن لما فيه الشبهة، والحديث كقوله: (دع ما يَرِيبك إلى ما لا يَرِيبك)، وقوله صلى الله عليه وسلم : (البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك، وكرهت أن يطلع عليه الناس). رواه مسلم من حديث النواس بن سمعان η، وحديث وابصة بن معبد η المشار إليه قال: أتيت رسول الله ρ فقال: (جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْبِرِّ)؟ قلت: نعم، قال: (اسْتَفْتِ قَلْبَكَ، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ)[1]، قال النووي في رياض الصالحين: حديث حسن، رواه أحمد والدارمي في مسنديهما، ولا شك أن المراد بهذا الحديث ونحوه، الحث على الورع وترك الشبهات، فلو التبست مثلاً ميتة بمذكَّاة، أو امرأة محرم بأجنبية، وأفتاك بعض المفتين بحِلِّيَّة إحداهما؛ لاحتمال أن تكون هي المذكاة في الأول، والأجنبية في الثاني؛ فإنك إذا استفتيت قلبك علمت أنه يحتمل أن تكون هي الميتة أو الأخت، وأن ترك الحرام والاستبراء للدين والعرض لا يتحقق إلا بتجَنُّب الجميع؛ لأن ما لا يتم ترك الحرام إلا بتركه فتركه واجب، فهذا يحِيك في النفس ولا تنشرح له؛ لاحتمال الوقوع في الحرام فيه كما ترى، وكل ذلك مستند لنصوص الشرع لا للإلهام.

[1] - تقدم تخريجه.

ومما يدل على ما ذكرنا من كلام الصوفية المشهود لهم بالخير والدين والصلاح، قول الشيخ أبي القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد الخزاز القواريري ρ: مذهبنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، نقله عنه غير واحد ممن ترجمه ρ، كابن كثير وابن خلكان وغيرهما. ولا شك أن كلامه المذكور هو الحق؛ فلا أمر ولا نهي إلا على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام"[1].

بين ρ بطلان احتجاج المتصوفة بظواهر بعض الأحاديث، كحديث (اسْتَفْتِ قَلْبَكَ)، وبين أن المراد من هذا الحديث الحث على الورع وترك الشبهات، كحديث (دَعْ مَا يَرِيبُكَ)، كأن يلتبس حلال بحرام فالورع ترك الجميع؛ لأن ما لا يتم ترك الحرام إلا بتركه فتركه واجب، ولم يقل أحد يعتد به: إن المراد الاستدلال بالإلهام؛ بل إن الأئمة من الصوفية كالجنيد ρ نصوا على أن المدار على الكتاب والسنة.

وقال ρ :" فإن قيل: قد يكون ذلك (يعني ما فعله الخضر ν) عن طريق الإلهام؟

فالجواب: أن المقرر في الأصول أن الإلهام من الأولياء لا يجوز الاستدلال به على شيء؛ لعدم العصمة، وعدم الدليل على الاستدلال به؛ بل ولوجود الدليل على عدم جواز الاستدلال به، وما يزعمه بعض المتصوفة من جواز العمل بالإلهام في حق الملهم دون غيره، وما يزعمه بعض الجبرية أيضًا من الاحتجاج بالإلهام في حق الملهم وغيره، جاعلين الإلهام كالوحي المسموع مستدلين بظاهر قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وبخبر: (اتقوا فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله)[2] كله باطل لا يُعَوَّل عليه؛ لعدم اعتضاده بدليل، وغير المعصوم لا ثقة بخواطره؛ لأنه لا يأمن دسيسة الشيطان، وقد ضمنت الهداية في اتباع الشرع، ولم تضمن في اتباع الخواطر والإلهامات. والإلهام في الاصطلاح: إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر من غير استدلال بوحي ولا نظر في حجة عقلية، يختص الله به من يشاء من خلقه، أما ما يلهمه الأنبياء مما يلقيه الله في قلوبهم فليس كإلهام غيرهم؛ لأنهم معصومون بخلاف غيرهم، قال في مراقي السعود في كتاب الاستدلال

وَيُنْبَذُ الْإِلْهَامُ بِالْعَرَاءِ ... أَعْنِي بِهِ إِلْهَامَ الْأَوْلِيَاءِ

وَقَدْ رَآهُ بَعْضُ مَنْ تَصَوَّفَا ... وَعِصْمَةُ النَّبِيِّ تُوجِبُ اقْتِفَا

[1] أضواء البيان لمحمد الأمين الشنقيطي (4/ 207، 208).
[2] تقدم تخريجه.

وبالجملة، فلا يخفى على من له إلمام بمعرفة دين الإسلام أنه لا طريق تعرف بها أوامر الله ونواهيه، وما يتقرب إليه به من فعل وترك إلا عن طريق الوحي. فمن ادعى أنه غني في الوصول إلى ما يرضي ربه عن الرسل، وما جاءوا به ولو في مسألة واحدة، فلا شك في زندقته، والآيات والأحاديث الدالة على هذا لا تحصى، قال تعالى: (من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه) [الإسراء: ١٥] ولم يقل: حتى نلقي في القلوب إلهاماً، وقال تعالى: (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) [النساء: ١٦٥] ، قال: (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) [طه: ١٣٤] الآية. والآيات والأحاديث بمثل هذا كثيرة جدًا، وقد بينا طرفاً من ذلك في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله:(من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه) [الإسراء: ١٥]"[1]

بين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ρ بطلان احتجاج الصوفية بفعل الخضر ν على الإلهام؛ وذلك أن المقرر في علم أصول الفقه أن الإلهام من الأولياء ليس دليلاً شرعياً؛ لأن الولي غير معصوم، ولعدم الدليل على كونه دليلاً؛ بل لوجود الدليل على عدم جواز الاستدلال به، ومما يحتج الصوفية قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) وحديث: (اتقوا فراسة المؤمن)، واستدلالهم باطل؛ لعدم اعتضاده بدليل، كما أن الولي غير معصوم، فلا ثقة بما يرد عليه من خواطر؛ إذ هو عرضة لدسائس الشيطان، والهداية في اتباع الشرع لا في اتباع الخواطر والإلهامات.

وقد تكلم ρ عن الإلهام عند الصوفية في شرحه على مراقي السعود فقال:"

ويُنْبَذُ الإلهامُ بالعراءِ ... أعني به إلهامَ الأولياء

يعني أن الإلهام ليس بحجة لعدم الثقة بإلهامِ من ليس معصوماً، فلا تُؤْمَن دسيسة الشيطان فيه، والنبذ: الطرح والإلغاء، والعراء: الأرض التي لا نبات فيها ولا شجر، والإلهام: إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر من غير استدلال، يخص اللَّه تعالى به من شاء، والحقُّ فيه ما ذكره المؤلف من أنه يُنبذ بالعراء أي يُلْغى ويُطْرح بالفضاء؛ إذْ لا يثبت الشرع إلا بدليل، ومِثْل الإلهام، ما لو رأى النبيَّ ρ يأمره أو ينهاه في النوم؛ لأن النائم لا يضبط.

وقد رآه بعضُ من تَصَوَّفا ... وعصمة النبيّ تُوجِبُ اقْتِفا

[1] أضواء البيان للشنقيطي (4/ 203- 205).

يعني: أن بعض المتصوّفة رأى الاحتجاج بالإلهام في حق الملهَم نفسه دون غيره، وبعض الجبرية رآه حجة في حق الملهَم وغيره بمنزلة الوحي المسموع، واستدلوا بحجج لا تجديهم، منها: قوله تعالى :(فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ) [الأنعام: ١٢٥]. ومنها: خبر: (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور اللَّه)[1]. وقوله: "وعصمة النبيّ" إلخ، يعني أن كون النبي ρ معصوماً يوجب اقتفاءه أي: الاقتداء به في خواطره؛ لأن إلهامه ورؤياه كل ذلك وحي.

لا يَحْكُم الولي بلا دليل ... من النصوصِ أو من التأويل

هذا البيت بيَّن فيه المؤلف نبْذَ إلهام الأولياء بالعراء وبيَّنَ أن معناه أنهم لا يحكمون أي لا يثبتون حكماً من أحكام اللَّه تعالى إلا بدليل من الأدلة الشرعية من نصٍّ صريح أو مؤول أو غير ذلك؛ لانعقاد الإجماع على أن الأحكام الشرعية لا تُعْرَف إلا بأدلتها، وقد كان ρ ينتظر الوحي فيما لم يَرِد عليه فيه نصّ.

في غيره الظنُّ وفيه القطْعُ ... لأجل كشفٍ ما عليه نَقْعُ

الضمير في "غيره" عائد إلى حكم اللَّه المفهوم من قوله: "لا يحكم" يعني أن غير حكم اللَّه تعالى من إلهامات الصالحين منه ما يكون ظنياً، ومنه ما يكون قطعياً لما يقع لهم فيه من الكشف، فمن أخبرَه وليٌّ بشيءٍ فقد يحصل له به اليقين لموجبٍ يقتضي ذلك، ككونه رآه لا يخبر بشيءٍ إلا وقع، وقد يحصل له الظن لما يعلم من صدق القائل وصلاحه. و"النقع" الغبار، والكَشْفُ هو أن يكشف اللَّه لبعض عباده عن غائب أو مستقبل، فمثاله في الغائب: قول عمر: "يا سارية الجبل" ومثاله في المستقبل: قول أبي بكر: "أُرى ما في بطنِ بنت خارجة أنثى[2]"[3].

وبين زيادة على ما تقدم أن الأولياء حقاً لا يحكمون إلا بدليل من نص صريح أو مؤوَّل أو غير ذلك؛ للإجماع على أن الأحكام لا تُعرف إلا بأدلتها، كما كان حال النبي ρ في انتظار الوحي عند عدم النص. وبين ρ أن حكم غير الله تعالى من إلهامات الصالحين منه ما يكون قطعياً؛ لما يقع لهم من الكشف، ومنه ما يكون ظنياً.

[1] تقدم تخريجه.
[2] تقدم تخريجهما.
[3] نثر الورود لمحمد الأمين الشنقيطي (582- 584).

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والحمد لله على التيسير والإعانة على إنجاز هذا البحث، وأرجو أن أكون قد وُفقت في تجلية بعض جهود المالكية في بيان الخلل الواقع عند الصوفية في الاستدلال بالإلهام وجعله مصدراً لتلقي العقيدة، وفق الله المسلمين لسلوك الجادة السوية والسبيل المرضية الموصلة إلى جنة رب البرية ، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قائمة المصادر والمراجع.

آثار محمد البشير الإبراهيمي: محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي. جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي. ط1. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1997م.

أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين الشنقيطي. تحقيق: مجموعة من المحققين تحت إشراف بكر أبو زيد. ط5 دار عطاءات العلم الرياض: دار عطاءات العلم- بيروت: دار ابن حزم، 1441 هـ - 2019 م.

التعريفات للجرجاني: الشريف علي بن محمد بن علي الزين الجرجاني. تحقيق: جماعة من العلماء. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية، 1403هـ -1983م.

رسالة الشرك ومظاهره: مبارك بن محمد الميلي. تحقيق: أبي عبد الرحمن محمود. ط1. الرياض: دار الراية للنشر والتوزيع، 1422هـ - 2001م.

جامع الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي. تحقيق: بشار عواد معروف. ط1. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1999م.

جهود علماء المالكية في الرد على الصوفية: مريم باقازي. ط1. الرياض: دار التوحيد للنشر، 1443-2022م.

دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي. تحقيق: عبد المعطي قلعجي. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية، 1405 هـ - 1985 م.

سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها: محمد ناصر الدين الألباني. ط1. الرياض: مكتبة المعارف، جـ 1 - 4: 1415 هـ - 1995 م، جـ 6: 1416 هـ - 1996 م، جـ 7: 1422 هـ - 2002 م.

سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة: محمد ناصر الدين الألباني. ط1. الرياض: مكتبة المعارف، الطبعة: الأولى للطبعة الجديدة 1412 هـ - 1992 م - 1425 هـ..

شرح العقيد الطحاوية: عليّ بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي. تحقيق: عبد الله بن المحسن التركي - شعيب الأرنؤوط. ط2. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1411 هـ - 1990 م.

صحيح البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري. تحقيق: جماعة من العلماء وعناية: زهير الناصر. ط1. بيروت: دار طوق النجاة، 1422 هـ.

قواطع الأدلة في الأصول: أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي. تحقيق: محمد حسن الشافعي. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية، 1418هـ-1999 م.

لسان العرب: جمال الدين محمد بن مكرم بن علي ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي. تحقيق: اليازجي وجماعة من اللغويين. ط3. بيروت: دار صادر، 1414 هـ.

مجموع الفتاوى: أحمد بن عبد السلام ابن تيمية. جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وساعده ابنه محمد. المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1425 هـ - 2004 م.

معجم أعلام الجزائر: عادل نويهض. ط2. بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، 1400 هـ - 1980 م.

نثر الورود شرح مراقي السعود: محمد الأمين الشنقيطي. تحقيق، علي العمران. ط5. الرياض: دار عطاءات العلم- بيروت: دار ابن حزم، 1441 هـ - 2019 م.

نظر الأكياس في الرد على جهمية البيضاء وفاس: عبد الرحمن النتيفي. تحقيق: عبد الله الدميجي. ط2. مكة المكرمة: دار طيبة الخضراء، 1441ه- 2020م.